

لمحات عن يهود الجزائر منذ مطلع القرن الثامن عشر حتى ١٨٣٠

محمد راده

حرص اغلب الكتاب اليهود على المبالغة في تصوير الوان الاضطهاد التي تعرض لها اليهود في الجزائر خلال العهد العثماني ، متناسين عن عمد ذلك الرخاء الذي شهده يهودهم في مختلف النواحي ، ومتجاهلين عن قصد ان الجزائر كانت من اهم المناطق التي آوت اليهود الفارين من وجه الاضطهاد المسيحي في اوربا ، يشهد على ذلك ازدياد عددهم المطرد ، والذي ما كان ليزداد لولا شعورهم بالامن والطمأنينة والسلام.

وقبل ان نتناول جوانب هذا الموضوع يجدر الاشارة الى ان يهود المنطقة لم يشكلوا وحدة عنصرية عرقية ، بل كانوا جماعات ترتبط بالدين والتقاليد والعادات ، فالموجات المتتالية التي جاءت من انحاء حوض البحر المتوسط ومن ورائه قد طمست كل الميزات العرقية الواضحة في المنطقة . فبالاضافة الى العنصر السامي القديم الذي جاء مع الفينيقيين منذ تأسيس قرطاج ثم بعد تهديم القدس في عهد « تيتوس » كان هناك عدد لا بأس به من البربر المتحولين الى اليهودية ، وقدمت من شبه جزيرة ايبيريا موجة اخرى ابتداء من العصور الحديثة . وقد لجأ اليهود الى الجزائر هربا من الاضطهاد الديني الذي كانوا يلاقونه في هذه البلاد ، كما قدم الى المنطقة مستوطنون يهود من بعض المدن الاوروبية منذ بداية القرن ١٨ ، ولا سيما من ليفورن ، بحثا عن الثروة والاستغلال التجاري .

ومنذ ذلك الوقت بدأ يظهر فرق واضح بين اليهود المحليين (القدامى والوافدين من الاندلس) ، الذين كانوا على صلات طيبة مع المسلمين ، وبين اليهود الليفوريين ، الذين افادوا ، بصفتهم اجانب ، من نظام الامتيازات ، ومن حماية الحكام الاتراك ، ومن ثم بدأوا يسيطرون على الطائفة اليهودية المحلية وعلى اقتصاد الجزائر وسياستها

وقد سمحت طبيعة الحكم العثماني في الجزائر خلال هذه الفترة لليهود الليفورنيين ، بتدعيم مراكزهم في البلاد ، اذ ادى تردي الوضع الاقتصادي في الولاية الى نقص عدد المتطوعين في الاوجاق الجزائري ، فعمد حكام الاقاليم العثمانية الى ارسال الاشقياء والمساجين وقطاع الطرق وحثالة المجتمعات (١) ، ومن هؤلاء كان حكام الجزائر ، الذين كانوا غير قادرين على تسيير اعمال الدولة لان اكثرهم توصل الى منصبه بفضل تمرد الانكشارية المطالبة بزيادة الاجور ، بعد ان كان هؤلاء الحكام يباشرون مهنا تعد بسيطة لا علاقة لها بشؤون الحكم ، مثل مهنة الفحامين او الاسكافيين او الكناسين واصدق مثال على ذلك : الداوي مصطفى ، الذي قيل بانه كان كناسا ورفعته اليهود الى مرتبة الداوي (٢) وكذلك الداوي علي الفسال ، الذي كان يفصل الاموات قبل سنة ١٨٠٨ (٣) .

وعلى هذا الاساس ، يمكن القول منذ البداية ، ان فساد الحكم العثماني في الجزائر ، هو الذي يسر لليهود الليفورنيين السيطرة على سياسة الجزائر واقتصادها .

التنظيم الطائفي والحياة الدينية :

في الواقع ان ثمة حقيقة يصح ان نبدأ بها ، وهي ان النظام العثماني في الجزائر ترك لليهود حرية تنظيم امورهم وعلاقاتهم الداخلية حسب شعائهم الخاصة وعباداتهم المرعية .

نظر العثمانيون الى اليهود في الجزائر بوصفهم جماعة متميزة لها ديانتها وعقائدها الخاصة ، فوجب عليهم اذن ، في ظل التسامح ، ان يمنحهم حرية العبادة والاقامة والسفر والتعليم ، وان يحافظوا على حياتهم واملاكهم ، والا يتدخلوا في شؤونهم الداخلية التي عهد بادارتها الى الرؤساء الدينيين ، ومقابل تلك الحماية التي كانوا يتمتعون بها فرضت عليهم ضريبة معينة هي (الجزية) .

وفي هذا الصدد يقول القنصل الامريكي (وليام شالر) في مذكراته ، فهم « يتمتعون بحرية تامة في ممارسة عقائدهم الدينية ، وهم يخضعون لقوانينهم الدينية في الاحوال الشخصية (. . .) » وبوصفهم رعايا جزائريين يتمتعون بحرية التنقل والاقامة حيث يرغبون ، وبممارسة المهنة التي يرونها في حدود القانون في جميع انحاء المملكة ، واليهود غير قابلين للاسترقاق « (٤) » .

كان يتولى ادارة امور اليهود رئيس من ابناء الطائفة يعينه الحاكم (٥) يدعى المقدم او الشيخ (٦) فهو الذي يمثل رعيته في كافة امورها امام السلطات العثمانية ، ويطلع الوزراء على جميع مقررات طائفته ، ويقوم بتنفيذ اوامر الداوي ونزواته

الشخصية ، فهو المسؤول المباشر عن دفع الضرائب تجاه الادارة العثمانية ، التي كانت تنظر الى اليهود كوحدة دافعة للضرائب (٧) .

وبجانب رئيس الطائفة ، كان هناك مجلس للطائفة اليهودية (TOBE - HAIR) يتألف من أربعة اشخاص ، غالبا ما كان يختارهم المقدم . وقد اختص هذا المجلس بادارة شؤون الطائفة ، وبالناحية المالية خصوصا ، اضافة الى ذلك كان المجلس يقدم خدماته لكل ما يخص الضرائب والمساهمات .

الى جانب المجلس ، كانت هناك وظائف أخرى اشتملت عليها المؤسسة الطائفية مثل وظيفة الكزبار (Guizbar) والكاباي (GABAï) والشابر (CHABER) . فالكزبار ، هو الموظف الذي اختص بتنظيم المعابد ومراقبتها ، كما اختص كذلك بتوزيع الصدقات . أما الكاباي والشابر ، فقد اختصا بدفن الموتى ، والى ذلك اختص الاخير بمراسيم الزواج (٨) .

وقد كفل النظام المالي المحافظة على حياة اليهود الدينية . ومن الجدير بالتنويه ان المصادر الاوروبية في معظمها تجمع على أنه لم تكن هناك قيود على اقامة دور عبادة في الاحياء اليهودية . ويقول (روزي) بهذا الصدد ، ان اليهود كانوا احرارا في بناء الكنيس والاروقة التي كانت تستخدم كغرف للتعليم الديني (٩) .

ويلاحظ أن أغلب اليهود في الجزائر عاشوا تحت تأثير التقاليد الدينية المستمدة من تعاليم التلمود ، وتعلموا مبادئ الديانة مشافهة عن طريق الحاخامية . والجدير بالذكر ان اليهود الليغورنيين ، أو اليهود الاحرار كما كانوا يسمونهم ، كانوا لا يخضعون للمؤسسة الطائفية ، غالبا ما نجدهم يتضايقون من اليهود الاهالي في الكنيس عندما كانوا يشاهدونهم يمارسون طقوسهم الدينية (١٠) .

وكانت الصلوات تقام بالعبرية التي كانت مجرد لغد دينية لاغير ، وكان معظم اليهود يجهلون معانيها (١١) . ومن الخطأ كما يقرر (وليام شالر) أنهم كانوا يتكلمون اللغة العبرية ، ولكنهم استخدموا لغة عربية متميزة قليلا من لغة العرب ، وممزجة بكلمات عربية وتركية وافرنجية (١٢) .

وكان اليهود في الجزائر على مذهبين ، فالتلموديون الذين كانوا منقسمين الى سكليين وكوسيين يسمونهم الاجانب (Fostareros) أو العجم ، والآخرين أي الاهالي ويدعون توشايم (Residents) أي المقيمين ، والمذهب كان مذهب السفارديم وبعض القرائين . اما الاشكنازيين الذين ينحدرون من اصل ألماني ، فلم يكن لهم وجود في الجزائر .

ويلاحظ أن كثيرا من اليهود الذين يشعرون أن أجلهم قد اقترب يسلمون كل ممتلكاتهم لورثتهم ولا يبقون لأنفسهم إلا ما يسمح لهم بسد الرمي في القدس التي يقصدونها ليلفظوا هناك أنفاسهم الأخيرة . ولقد شاهد (وليام شالر) في سنة ١٨١٦ عددا منهم وهم يبحرون في آخر حج لهم على متن سفينة استؤجرت خصيصا لنقلهم إلى شواطئ سورية(١٢) . إلا أن هذا السفر الذي كان يقدم عليه اليهود خلال هذه الفترة ، كان يعد مخاطرة كبيرة ، لذلك كانت قلة منهم تصل إلى فلسطين(١٤) . ومما لا شك فيه أن ارتباط اليهود بترائهم الديني هو الذي كان يربطهم بفلسطين لما كانت تحمله من ذكريات مقدسة ، وهو الذي دفعهم إلى المجيء إليها لأسباب دينية لا غير .

الوضع التعليمي :

تشهد كتب الاوروبيين الذين زاروا الجزائر خلال هذه الفترة . أن التعليم اليهودي ، كان منتشرا في أنحاء البلاد ، وأن كل يهودي حسب قول (كوهين) كان يعرف القراءة والكتابة(١٥) .

والدولة العثمانية ، كما هو معروف ، لم تتدخل في شؤون التعليم وعدته من جملة الامور المرتبطة بالطوائف الدينية ، فخولت الجماعات اليهودية المنتشرة في أنحاء البلاد حق تأسيس المدارس الخاصة بها وادارتها، وغالبا ما تكون غرفا ملحقة بالكنيس .

ومهما يكن من امر ، فان الطائفة اليهودية كانت ترمي إلى أن يكون تعليم ابنائها تحت اشرافها حتى توجههم الوجهة التي تريدها ، وحتى يشبوا على ولائهم لدينهم وطائفتهم . وفي هذا المجال عنيت بالتعليم الديني وبحث المفاهيم الدينية فيهم ، كما اهتمت كذلك بمبادئ الحساب لان التجارة والحرف تقضي معرفة ذلك . ولذلك ظل التعليم اليهودي كالسابق تعليما دينيا بحتا ، يبدأ في المنزل على يد الاباء الذين كانوا يسهرون على تربية اطفالهم . فلا يدخل الطفل إلى المدرسة ليتعلم القراءة والكتابة الا وتكون القيم الخلقية والاجتماعية قد ترسخت فيه . أما التعليم في المدارس ، فكان يشرف عليه رجال الدين . غير أن طرق التدريس ظلت كالسابق تقليدية لا تعتمد على أية وسيلة تربوية ، وكان يغلب عليه الحفظ والاستذكار .

هذا وقد كان التعليم اليهودي الذي اشرفت عليه الطائفة يشمل حسب (كلانسوال) على ثلاث مراحل (١٦) :

- ١ - المرحلة الاولى : وفيها يدخل التلميذ الذي تتراوح سنه ما بين الرابعة والثامنة إلى المدرسة ، ويتعلم القراءة تحت اشراف رجال الدين .
- ٢ - المرحلة الثانية : وفيها يدرس الطلاب تاريخ العهد القديم (التوراة) .

٣ - المرحلة الثالثة : وفيها يتلقى الطلاب مبادئ الكتابة والحساب .

اما التعليم في هذه المدارس الدينية ، فكان يتم باللغة العبرية ، ويذكر (هايدو) ان التلاميذ كذلك تعلموا اللغة العربية التي كانوا يكتبونها باحرف عبرية (١٧) .

واذا كان الفقراء يكتفون بهذه المراحل من التعليم ، فان الاغنياء يواصلون تعلمهم فغالبا ما كانت الاسر الغنية تبعث اولادها الى اوربا ، وخصوصا الى ايطاليا ، ليتلقوا مبادئ التجارة ويتعلمون اللغات (١٨) .

الاحوال الاجتماعية :

يمكن تقسيم اليهود الى ثلاث طبقات رئيسية

- ١ - طبقة غنية وتضم التجار الكبار والصرافين .
- ٢ - طبقة متوسطة وتضم التجار الصغار وبائمي المرق .
- ٣ - طبقة فقيرة وتضم الحرفيين والباعة الجوالين .

وقد عاش اليهود في حرية ، وفي كل مكان عوملوا بتسامح من جانب العرب سواء كانوا يعيشون في احيائهم ام في بقية اجزاء البلاد . غير ان اليهود تعرضوا مثل بقية العرب لظلم الاتراك العثمانيين . ولا ينكر ان هذا الظلم تحول في بعض فترات الى اضطهاد ، ولكن يجب الا يفهم من ذلك ، ان اضطهاد اليهود هذا كان لمجرد أنهم يدينون باليهودية . وفي الحقيقة ، ان النظام العثماني لم تكن له قوانين مضبوطة ومدونة تحدد ما لقيصر لقيصر وما للرعية للرعية ، لهذا ساد الظلم وارتفع الباطل ، وقلت ثقة السكان في الحكام . ولكن ، ومهما كانت تصرفات الاتراك العثمانيين الشديدة تجاه اليهود ، فانها لم تصل الى حد التعدي على معتقداتهم الدينية كما حدث لهم في اوربا ، بل نجدهم يتمتعون في الجزائر زمن العثمانيين بحرية العبادة والاقامة ، والى جانب ذلك عوملوا باحسان بالنسبة للامم الاخرى .

وعلى هذا الاساس ، فان سوء معاملة المسلمين لليهود لا ترجع الى عقيدتهم وانما ترجع بالدرجة الاولى الى سلوكهم واخلاقهم وتصرفاتهم تجاههم . وليس هناك دليل واحد يقيم الحجة على ان المسلمين اساءوا معاملة اليهود لمجرد أنهم يهود . فالمسألة اذن ليست دينية كما فهمها من اراد المس بالدين الاسلامي وبأهله ، ولكنها مسألة سياسية بالدرجة الاولى .

وعلى اية حال ، فالعلاقات بين اليهود والمسلمين كانت حسنة طوال هذه الفترة

ما عدا فترات محدودة لقي فيها اليهود بعض المضايقات الخفيفة ، وخصوصا في اواخر العهد العثماني ، بسبب الظروف الصعبة التي مرت بها البلاد . وفيما يخص هذه الفترة بالذات ، فان الجزائر قد تعرضت لمجاعات وأوبئة ، وكان طبيعيا ان يستغل اليهود هذه الظروف ليزيدوا في الاسعار ، الامر الذي أدى الى نقمة المسلمين عليهم .

النشاط الاقتصادي

نتج عن وجود العنصر اليهودي النشط في البلاد الجزائرية خلال هذه الفترة من العهد العثماني ، نشاط اقتصادي غير معهود ، برز في مختلف المجالات الاقتصادية من صناعة وتجارة وخدمات أخرى . ولا نبالغ اذا قلنا ان اليهود اثروا تأثيرا بليغا في الحياة الاقتصادية ، وذلك اعتمادا على القاعدة الوثائقية لهذه الفترة التي توضح بشكل جلي تفوقهم الكبير في هذا الميدان .

ومهما يكن من امر ، فان اليهود ساهموا يقينا في تنشيط اقتصاد البلاد . ونحن نعلم أيضا انهم كانوا ذوي خبرات راقية ومتعددة في ميادين الصناعة والتجارة .

ويلاحظ أن عددا كبيرا من اليهود كان قد استقر بالمدن الكبرى التي اشتهرت بالتجارة وبموقعها الجغرافي ، في الجزائر ، وقسنطينة ، ووهران ، قصد الارتزاق . لكن القطاع الذي استهواهم ، بدون منازع ، أكثر من غيره هو قطاع التجارة ، لان التجارة كما هو معروف كانت أكثر الحرف التي تدر على أصحابها الارباح الطائلة . فلا عجب اذا ما طرق اليهود هذا الباب أكثر مما طرقوا غيره ، ولا سيما ان مهارتهم وخبرتهم بالبلاد المسيحية التي تجري معها المبادلات تؤهلهم الى ذلك أكثر من غيرهم .

١ - النشاط الصناعي

يحسن بنا ، قبل كل شيء ، الاشارة الى اننا لا نعرف شيئا عن الزراعة عند اليهود خلال هذه الفترة ، وأكبر الظن انهم لم يعملوا بها (١٩) وقد كان معظمهم يشتغل في الصناعات الحرفية والتجارة واعمال أخرى . فقد عمل اليهود في مختلف الحرف ، لاسيما الاعمال التي تتطلب المهارة والنشاط ، وتفوقوا بها على سائر أهل البلاد . فلم تكن هناك صنعة الا وزاولوها ، غير أنهم فضلوا ممارسة بعض المهن والصناعات مثل الخياطة والصباغة والغزل والحياكة وصناعة المطرزات (٢٠) كما عملوا في صناعة الزجاج (٢١) ومقايض البنادق (٢٢) ، الى غير ذلك من الصنائع الشائعة في ذلك الحين .

ومن الصناعات المهمة التي ارتبطت بالوجود اليهودي بالجزائر صناعة الذهب والفضة التي برعوا فيها بشكل لا يجاريهم فيه احد ، والتي أصبح لها شارع خاص

بمدينة الجزائر عرف بشارع الصاغة حيث محلات اليهود ، التي اقتصت بصناعة الحلي من الذهب والفضة . وفي الوصف الذي خلفه لنا (راهبندر) من القرن الثامن عشر للجماعة اليهودية بمدينة الجزائر ، « نجد ان اليهود كانوا يمارسون الحرف التي تتصل بالمعادن الثمينة ، لاسيما منها التي تتعلق بالذهب والفضة ، وكانت ورشاتهم لمزاولة هذه الصناعة تقع بالقرب من قصر الداى في زقاق ضيق ووسخ ، بالاضافة الى ان معظمهم كان يعمل في سك العملة .. » (٢٢) . وكانت هذه الصناعات التي تتمثل في الحرف ، تمارس في مختلف مدن الإيالة منظمة في هيآت تتولى كل واحدة صناعة نوع محدد من الادوات والملابس التي يحتاج اليها السكان في الحياة اليومية . وقد انحصرت مهام ابناء هذه الهيآت او النقابات في الاشراف على اصول المهنة والحرص على جودة البضاعة وتحديد كميتها .

ب - النشاط التجاري

كانت التجارة في الفترة التي ندرسها من أبرز مصادر الثروة ، وكان اليهود يعتمدون عليها لكسب رزقهم . فنجد اليهود الذين كانوا يقطنون بمدينة الجزائر يمارسون تجارة القوافل التي تمتد بين الجزائر وقرسطنطينة ، ويعكفون بصفة خاصة على تجارة الحرير والنسيج والاقمشة والمصابيح الاوربية وخردوات اوربا (٢٤) . واعتمد اهل البلاد على اليهود اعتمادا كليا لتزويدهم بكل متطلباتهم من السكر والشاي والاقمشة التي اوصلوها عن طريق الباعة المتجولين الى اقصى المناطق النائية في الداخل (٢٥) . فاليهودي بعمله هذا كان أشبه بالذكان المتنقل ، فهو يعرض خدماته ويقدم القروض بفوائد مرتفعة ، وان اضطرته الظروف ذهب الى تخوم الصحراء لبيادل سكانها بما تحمله بغاله من حبوب مقابل ريش النعام والجلود والتبر (٢٦) .

وفضلا عن ذلك ، نجد اغلب اليهود قد حصلوا على ثروات ضخمة نتيجة انسمرة والمراباة والقيام بدور الوساطة في كل العمليات التجارية مهما كانت بسيطة او تافهة حتى اصبح العربي في مدينة الجزائر على حد تعبير (روزى) « لا يستطيع ان يبيع دجاجتين بدون وساطة ماجورة من أحد اليهود » (٢٧) .

ومن جهة اخرى ، كسب اليهود ثروة طائلة وفوائد جمة من استغلال العبيد او افتدائهم ، وقد أصبحوا الوسطاء الحقيقيين لهذه الحرفة بفضل تمتعهم بمستوى رفيع من التكوين والتدريب بالاضافة الى مرونة الشخصية ومعرفتهم باللغات السائدة في حوض البحر المتوسط ، والى العلاقات التقليدية التي تربطهم في مختلف البلدان . وكانت الجزائر قد دخلت منذ قرون عديدة في حروب مع الدول الاوروبية ، حيث ظلت هذه الحروب تعد موردا مهما للدولة . واذا كانت البضائع تباع في كثير من الاحيان بأسعار رخيصة ، فان افتداء العبد كان في اغلب الاوقات له فائدة كبيرة .

وكان العبد لا يطلق سراحه الا بعد ان تدفع عنه قيمة الفدية . وحتى وان حصل الاسير على مبلغ كاف من بلده ليعود الى اهله سالما ، فانه كان يواجه صعوبة كبيرة في اصال الاموال الى اصحابها الحقيقيين ، لان ارسال الفدية الى العبد او الى سيده كان عرضة للخطر وخوفا كذلك من هذا الاخير الذي ربما يحتفظ بالاسير ومبلغ الفدية معا . ولتلافي ذلك اوجد اليهود في العصور الوسطى نظام (الكمبيالة) .

بذلك تمكن اليهود من احتكار التجارة الخارجية التي كانت بيدهم خلال هذه الفترة ، اكثر من أي وقت مضى ، بفضل المكانة الممتازة التي اكتسبوها بسرعة لدى تجار البيوت التجارية في البلدان الاوربية والافريقية ، فكانوا يستغلون مهارتهم التجارية وفرصة انعدام البنوك في تنشيط التجارة وخلق القروض والضمانات بفوائد خيالية الى ان اصبحوا من كبار الاثرياء ، بسبب الخدمات الجليلة التي قدموها للدائيات وكبراء الدولة الذين منحوهم حق الاحتكارات التجارية ، واوكلوا اليهم تنظيم المدفوعات الخارجية وتقويمها فاصبحوا باستماراتهم التجارية بمثابة البنوك يقومون بالتحويلات النقدية والقرضية والحسابية بين الجزائر وأوربا . وقد ساعد التجار اليهود على تنظيم المدفوعات التجارية من قروض وسندات وتقود ما كان لهم من وكلاء وبيوت تجارية في مختلف المدن التجارية المهمة في أوربا وأفريقيا وآسيا . والمثال على ذلك ، ان عائلتي بكري وبوشناق كان لهما وكلاء في عديد من المدن في حوض البحر المتوسط مثل قرطاجة ومرسيليا وجنوة وليفون ونابولي وازمير والاسكندرية وتونس ، وبفضل هذا التنظيم الاداري التجاري كان على التاجر سواء كان جزائريا ام اوربيا أن يوفي بدينه لهذه الوكالات اليهودية عن طريق المراسلة دون نقل السبائك الذهبية ، في فترة اشتدت فيها الحروب البحرية ، وهانت فيها النفوس ازاء كل معدن نفيس .

ولقد احتلت المبادلات التجارية مع مدينة ليفون مكانة كبيرة نظرا لوجود عدد كبير من التجار اليهود فيها ، الذين وجدوا كل التسهيلات التجارية حيث ركزوا الوكلاء والمشرفين على التجارة لتأمين بضائعهم التي كانوا يرسلوها الى شمال افريقيا وأوربا والمشرق (٢٨) . كان اليهود يستعملون مواني الجزائر ، فيصدرون الى ليفون مقادير من القمح الصلب لا نستطيع تحديد كميتها لعدم وجود الاحصاءات ، وكذلك كميات من المرجان وريش النعام والجلود والصوف وبعض المنتجات المحلية الاخرى (٢٩) . وبالمقابل كانوا يستوردون منها بعض المصنوعات والخردوات وكثيرا من الرخام والاقمشة الحريرية والحلي وغيرها (٣٠) .

من المؤكد ان العلاقات التجارية اليهودية بين الجزائر وأوربا كانت قائمة خلال هذه الفترة التي ندرسها ، وكانت تتطور تدريجيا ، غير اننا لا نستطيع تقييمها بدقة لعدم وجود الاحصائيات المضبوطة ، لان اليهود كانوا يهتمون الكتابة والتقييد لتجنب

النضائب التي كانت تفرض على البضائع المصدرة والمستوردة . ولكن الامر الذي نعرفه هو ان ليفورن ومرسيليا احتلتا مرتبة ممتازة في استيراد المواد الاولية من الالة منتفعة بالطائفة اليهودية المحتكرة لثلي التجارة الخارجية للجزائر (٢١) .

غير ان الشركة التي تزعمت هذا النشاط هي شركة بكري وبوشناق التي كان لها محلات في عديد من المدن الجزائرية . والمعروف ان احتكار هذه الشركات للتجارة لم يكن مصادفة وانما كان نتيجة تكاتف افرادها وعملهم على استمالة الشخصيات الرسمية والاعيان في البلاد ، بالاضافة الى الوسائل المختلفة التي كانوا يستعملونها ابتداء من الهدايا الثمينة والمساعدات المالية الى التجسس في الداخل والخارج لحسابهم ولحساب الحاكمين الذين يرغبون في استعطافهم .

وبهذه الطريقة تضاعفت رؤوس اموال الشركة اليهودية بسرعة فائقة واستطاعت ان تنفذ بقوة الى المحيط الرسمي ، حيث تمكنت من الاستئثار برعاية اثنين من الشخصيات البارزة آنذاك هما الداين : بابا حسن (١٧٩٢ - ١٧٩٨) ومصطفى (١٧٩٨ - ١٨٠٥) .

وهناك من يميل الى القول بان هذين الداين كانت لهما حصة مما كانت تحصل عليه المؤسسة اليهودية من ارباح طائلة ، ولكننا نعتقد ان هؤلاء اليهود انما تمكنوا من الفوز بثقة السلطات ، لان عيونهم كانت منتشرة في كل انحاء البلاد تزودهم بجميع المعلومات بتحركات القبائل . وكان المسؤولون المركزيون يحتاجون الى مثل تلك المعلومات لتدعيم اوضاعهم وللحفاظ على مناصبهم ، كما انهم لم يكونوا يخشون من اليهود ان يستولوا على الحكم .

وهذه الثقة التي احرزوها في مختلف المستويات ، كانت سلاحا حادا لهم وعليهم في الوقت نفسه ، اذ بقدر ما كانت تفتح لهم منافذ الثروة واسعة ، كانت كذلك تعرضهم من حين الى اخر لسخط الاجناد والاهالي الذين كانوا يستنكرون تقربهم من الحكم .

اما خارج الإالة ، فان شركة بكري وبوشناق قد فرضت نفسها في كثير من البلدان الاوربية ولاسيما في فرنسا التي كانت مركزا مهما لنشاط اليهود التجاري والدبلوماسي فكان تنظيم الشركة يقوم على اساس توزيع العمل بين الشركاء . فبينما كان اولاد بكري يقومون بادارة الشؤون المالية والتجارية للشركة ، كان بوشناق يقوم بالعمليات السياسية في قصر الداين ، ويشترك في حيك المؤامرات ، ويوزع الرشوة والحظوة كما يشاء . وقد بلغ من النفوذ درجة جعلته يلقب في الاوساط الدبلوماسية بلقب « ملك الجزائر » (٢٢) .

وهكذا ، كان لهذا الوضع التجاري الذي سيطر عليه اليهود تأثير خطير على الأوضاع الاقتصادية للبلاد ، زيادة على الآثار السلبية على حياة السكان . وذلك بفعل مزاحمة اليهود في كل الأعمال التجارية . وبالفعل فقد تسبب هذا الوضع في إعاقة نمو الطبقة التجارية المحلية بعدما آلت كل الصفقات المربحة والمبادلات المهمة إلى أيدي التجار اليهود بفضل الامتيازات التي كانوا يحظون بها من البابلك (٢٣) .

دور اليهود في السياسة الخارجية الجزائرية

بعدما أحرز اليهود ثقة السلطات الحاكمة ، وتولوا ما يشبه الوصاية على عرش الداي وسيطروا على الحياة الاقتصادية ، أخذوا يوسعون نطاق عملياتهم لتشمل الشؤون الدبلوماسية .

وفي الوقت الذي وجه فيه اليهود نشاطهم نحو أوروبا ، كانت المؤسسات الفرنسية في الجزائر تعاني وضعاً سيئاً بسبب العجز المالي التي كانت تمر به الحكومة الفرنسية آنذاك ، وهذا ما جعلها تستعين بشركة بكري وبوشناق لتمويل فرنسا بالحبوب .

وعندما قامت الثورة الفرنسية ، تعرضت فرنسا خلال هذه الفترة لازمات حادة سياسية واقتصادية . بالإضافة إلى أنها كانت في حالة حرب مع معظم دول أوروبا وقد حاولت الحكومة البريطانية الضغط على الداي للحيلولة دون وصول القمح إلى فرنسا ، ولكن الداي حسن رفض الطلب البريطاني . وعلى أثر ذلك لجأ قنصلها إلى الشركة اليهودية وحاول أن يستعين باليهوديين بكري وبوشناق لمنع وصول شحنات القمح إلى فرنسا . غير أن الانتصارات التي أحرزتها الجيوش الفرنسية ضد « الحلفاء » لم تلبث أن فتحت أعينهما فسارعا إلى المطالبة بمنحهما امتيازاً لتمويل فرنسا بالقمح ، وحصلوا على هذا الامتياز بدون صعوبة .

ولكن علاقات فرنسا والشركة اليهودية سيعتريها بعض الفتور ولفترة قصيرة في أواخر القرن الثامن عشر ، حينما سمعت الحكومة الفرنسية بأن الشركة اليهودية تزود الحامية الإنجليزية المرابطة في مضيق جبل طارق ، وعلى أثر ذلك عمدت الحكومة الفرنسية إلى تجميد ديونها . وفي ٢٦ نيسان ١٧٩٧ كتب « دولاكروا » ، وزير خارجية فرنسا إلى زميله وزير المالية رسالة ينصح فيها باتخاذ إجراء التجميد ، جاء فيها قوله : « وباحتفاظنا بالمبالغ المستحقة لليهوديين بهذه الطريقة سنمنعهم من التحول عن مصالحنا ونضطرهم إلى التزام تحفظ أكبر في طرق تعاملهم مع الانجليز ، الذين لا يخدمانهم بهذه الحماسة إلا لأن وجودهم في شمال إفريقيا يثير في نفوسهم الأمل في تحقيق أرباح أخرى » (٢٤) .

ومثل هذا الاجراء هو الذي جعل الداى حسن في ١٨ ايار ١٧٩٧ يتدخل ، ويكتب الى حكومة فرنسا رسالة حملها اليهودي سيمون فند فيها جميع الاتهامات واكد « اخلاص اليهوديين بكري وبوشناق لكل ما يخص مصالح الامة الفرنسية » (٢٥). ولكن عندما خرج « دولاكروا » من وزارة الخارجية وحل محله « تاليران » في تموز ١٧٩٧ ، تنفس اليهوديان بكري وبوشناق الصعداء ، وسارعا الى ربط علاقتهما « بالشيطان الاعرج » الذي تحول الى محامي بليغ الحجة وحليف قوي لليهود ، مما جعل يعقوب بكري يكتب الى اخيه ابراهيم بكري قائلا : « ... اذا لم يكن الشيطان الاعرج في يدي ، فانا لن اعتمد على شيء في الدنيا بعد الان » (٢٦) .

فمن الواضح ان تاليران في ذلك الحين ، كان يدرك النفوذ الكبير الذي وصل اليه اليهود ، فكان عليه ان يأخذ في الاعتبار مجمل العلاقات الجزائرية الفرنسية ، التي كان اليهوديان مفتاحا لها . وهكذا كانت المسألة بالنسبة الى « تاليران » ، هي كيف يحافظ على استمرار تمويل فرنسا بالحبوب ويضمن عدم تحول « عواطف » اليهود ، وبالتالي الداى الى انجلترا .

وبينما كان الصراع على أشد ما يكون بين الجزائر وانجلترا في ١٨٠٠ الذي كان من المحتمل ان يؤدي الى حرب بين البلدين ، تدخل بوشناق في وضع حد لهذا النزاع ، حيث حصل من الداى على قرار يمنح العلم البريطاني مكانة الشرف في الايالة ، وأكثر من ذلك ، فان الداى نفسه ادى التحية للسفينة التي تحمل القنصل الانجليزي السيد فالكان FALCAN في ١١ ايلول ١٨٠٠ (٢٧) .

وفي السنة التالية ، اي في سنة ١٨٠١ ، كان لبوشناق شرف استقبال قناصل الدانمارك والسويد وهولندا ، وتسلم منهم باسم الداى الهدايا التي تدفعها دولهم الى السلطات العثمانية في الجزائر . وكان له الشرف كذلك ان يفاوض في معاهدة الصلح بين الايالة وفرنسا ، وان يقدم للداى في ١٧ كانون الاول ١٨٠١ ، القنصل الفرنسي الجديد لهذه الامة ، السيد « ديواتافيل » (٢٨) .

وفي ٢٨ آب ١٨٠٣ استقبل مبعوث البرتغال ، السيد « لازارو جوزيف » ، الذي كلف بالتفاوض بشأن معاهدة السلام ، وقام هذا اليهودي بالمفاوضات بين الجزائر والبرتغال من بدايتها حتى نهايتها ، والتي فشلت بسبب الشروط القاسية التي فرضت على البرتغال . وفي ١١ كانون الثاني ١٨٠٤ استقبل بوشناق مبعوث السلطان في الاستانة ، الذي كلف بمهمة صعبة في الجزائر ، فقد اضطر هذا المبعوث الى التحدث مع بوشناق قبل ان يمثل امام الداى ، مما جعل القنصل الاسباني ، الذي لاحظ حالة مماثلة ، ان يطلق على هذا اليهودي بكل بساطة اسم « نائب ملك انجلترا » (٢٩) .

تلك بعض الامثلة لتدخل اليهوديين بكري وبوشناق في نواحي حيوية من سياسة البلد الخارجية .

الثورة على اليهود :

كان السكان خلال سنوات طوال يشاهدون في صبر وتحمل كبير نفوذ اليهود وهو يزداد توغلا مع مرور الزمن في اعمال الحكومة وفي شؤونها الحسابية واسرارها المالية ، وفي الحياة الاقتصادية والسياسية .

يقول « دو غرامون » (٤٠) ان مختلف عناصر السكان وقفت ضد اليهود ، بالاضافة الى الانكشارية والحضر ، كان هناك افراد طائفة البراني واصحاب الحرف البؤساء الذين كانوا يكرهونهم كذلك . فجميع المظالم والجرائم التي ارتكبتها الاتراك كانت تعزى اليهم ، وحتى الموظفين وقفوا ضدهم وكانوا على استعداد للاطاحة بهم .

وهكذا ، فان جميع الفئات تضررت من معاملتهم ، كالزارعين الذين كان اليهود يشترون منتجاتهم بأبخس الاثمان ويبيعونها بأسعار خيالية ، والتجار الذين اقترضوا من اليهود المال بالربا الفاحش ، والاهالي الذين كانوا يشترون من اليهود البضائع الفاسدة المغشوشة . وزيادة على ذلك ، فانهم تسببوا في تجويع الشعب باحتكارهم المواد الغذائية الضرورية لحياة السكان مثل الحبوب ، التي كانوا يرفعون اسعارها ويصدرونها الى الخارج في اوقات القحط والمجاعات ، دون مراعاة لشعور السكان وحاجاتهم الاساسية .

ولقد وقع العديد من المحالات لاغتيال اليهودي بوشناق الذي كان على صلة وثيقة بالدوائر الحاكمة في البلاد ، واشترك مع الداي في تجارة الحبوب ، ومنحه هذا الاخير حق الاحتكار ، وراينا كيف استطاع هذا اليهودي ان يستبد بالحركة الاقتصادية العامة بمختلف الطرق الشرعية وغير الشرعية . وعلى الرغم من كل محاولات الاغتيال، فان هذا اليهودي مضى في تحديه وفي جرائمه وغطرسته ، وجرت محاولتان لاغتياله في الشوارع بضربة خنجر ، ونجا في كل مرة دون ان يصاب بأذى . وفي ٢٨ حزيران ١٨٠٥ ، في الساعة السابعة صباحا ، وبينما كان بوشناق خارجا من قصر الداي ، سدد اليه انكشاري يسمى « يحيى » مسدسه واطلق عليه النار قائلا : « تحية اليك يا ملك الجزائر » وهرع الجند وسيوفهم مسلولة الى مكان الحادث ، وقال لهم يحيى : « لقد قتلت اليهودي . . فهل انتم من كلاب اليهودي » وعند ذلك تركوه وشأنه وخرج ولما عاد الى ثكنته حمله رفقائه على اكتافهم ، وأخذ كل واحد منهم يتلمس طريقة « ليسلم على اليد التي خلصت البلد من المستبد » . واما مصطفى داي الذي أخذ يرتعد خوفا من الخطر ، فبدلا من أن يامر بالقضاء القبض على الجاني الذي ارتكب الحادث في قصره ، بعث اليه بسبحته رمزا للعفو عنه (٤١) .

وما ان ذاع خبر اغتيال اليهودي بوشناق في المدينة حتى انفجرت الفتنة بشكل كبير ، وقامت مظاهرة شعبية اشتركت فيها جميع عناصر السكان من الجند والحضر والاندرلسيين والقبائليين والبسكريين والاباضيين ، واتجهت الى الحي اليهودي ، حيث راخوا ينتقمون بالقتل والسلب والنهب والاحراق ، ويشجعهم في ذلك النسوة اللواتي كن يشاهدن هذه الاحداث من فوق السطح (٤٢) .

فيما يخص مصير مصطفى داي ، فانه بعدما شعر بالخوف على حياته ، عرض على الانكشارية ان يسمح لهم بنهب المدينة اذا قبلوا ان يتركوه على قيد الحياة . ولما رفضوا طلب اليهم ان يسمحوا له بالسفر الى المشرق ، غير أنهم رفضوا هذا الطلب كذلك ، مما جعله يحاول الهرب مع الخزناجي والتوجه الى ملجأ يحميه من غضبة الجماهير ، ولكنها لحقت به فذبح وسحبت جثته في الشوارع ، ثم رميت عند « باب عزون » ، وهكذا مات مصطفى داي والشعب غاضب عليه .

ولاجل تهدة الانكشارية وعدهم الداي الجديد بطرد جميع اليهود من المدينة ماعدا اصحاب الحرف الذين لا يمكن للسكان الاستغناء عنهم ..

ومنذ الايام الاولى من وقوع المصيبة التي حلت باليهود اسرعت مجموعة كبيرة من العائلات للهرب خوفا من القتل والنهب . ففي ١ تموز هاجرت نهائيا من مدينة الجزائر ١٠٠ عائلة يهودية الى تونس و ٢٠٠ عائلة اخرى الى ليفورن في ١٠ تموز ١٨٠٥ (٤٢) ..

ومما يلاحظ انه على الرغم من جميع هذه الانتفاضات العنيفة ، فان الطائفة اليهودية ظلت بعد هذه الاحداث تعيش في سلام ووثام مع السكان العرب .

كما ان الاغلبية منهم كانت بعيدة عن الصراعات والمؤامرات التي جرت بين الاسر اليهودية الليفورنية للسيطرة على امور الطائفة . وان جميع الاموال التي جمعها هؤلاء اليهود كانت على حساب السكان من يهود وعرب واتراك على السواء .

الخاتمة :

يتأكد لنا من خلال ما تقدم ان اليهود كانوا يؤلفون عنصرا مهما في المجتمع الجزائري زمن العثمانيين . وقد تمتعوا باستقلال ذاتي في الاشراف على امورهم الدينية وادارة مؤسساتهم حسب قوانينهم وعاداتهم ، فازدهرت احوالهم الاجتماعية من جراء نظرة المسلمين المتسامحة .

ولكن ، ومهما كانت تصرفات العثمانيين الشديدة تجاه اليهود ، فانها لم تصل الى حد التعدي على معتقداتهم الدينية كما حدث لهم في اغلب بلاد أوروبا ، حيث كانوا يتعرضون هناك لابسع الاحقاد ، وكانوا يعيشون في عزلة ، وظلوا عرضة للطرد والاضطهاد والتشريد .

وعلى اية حال ، فقد اتيح لليهود في المجتمع الجزائري خلال هذه الفترة مكانة مرموقة سمحت لهم بالقيام بدور اقتصادي وسياسي كبيرين ، بسبب الثقة التي كانوا يحظون بهامن المسؤولين العثمانيين، الذين يسروا لهم السيطرة على شؤون البلاد. وبذلك راحت اطماع اليهود تزداد باستمرار ، كما ازدادت الامتيازات التي اعطيت لهم رسوخا ، واصبح من المستحيل اخضاعهم ، فكانت النتيجة دمار الجزائر وتسهيل احتلالها .

حصل الباحث على شهادة الماجستير في الاداب برسالتة : « يهود الجزائر في العهد العثماني من مطلع القرن الثامن عشر حتى ١٨٣٠ » باشراف الدكتور محمد خير فارس .

الهوامش :

- (١) Plantet, E., **Correspondance des Deys d'Alger avec la Cour de France**, t.I, Bou Slama, Tunis . 1981, P. XVI.
وكذلك فارس ، محمد خير ، تاريخ الجزائر الحديث من الفتح العثماني الى الاحتلال الفرنسي ، مطابع الف باء - الاديب ، دمشق ١٩٦٩ ص ٧٠-٧٢ و٨١-٨٧ .
- (٢) Esquer, G., **La Prise d'Alger 1830**, La Rosse, Paris 1929, P. 20.
- (٣) Grammont, H. D. de , **Histoire d' Alger sous la dimination turque (1515-1830)** , E. Leroux, Paris 1887 , pp. 369-370.
- (٤) شالر ، وليام ، مذكرات وليام شالر قنصل امريكا في الجزائر (١٨١٦ - ١٨٢٤) ، تعريب وتعليق وتقديم اسماعيل العربي ، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع ، الجزائر ، ١٩٨٢ ، ص (٨٩).
- (٥) المصدر نفسه ، ص (٨٩) .
- (٦) يقرول هايديو ان رئيس الطائفة اليهودية في الجزائر كان يعرف باسم قسيس ، الا ان الاسم كان يدل على رئيس الطائفة المسيحية راجع :
- Haedo, F. D. de , «Topographie et histoire generale d'Alger», in **Revue Africaine** , 1870, P. 91.
- (٧) Trapani, D . , **Alger tell Qu'elle est ou tableau statistique , morale et Politique de cette regence**, Paris 1830, P.21.
- (٨) تريد من المعلومات حول التنظيم الطائفي راجع :
Cahen, A., **Les Juifs dans l'Afrique septentrionale**, L. Arnolet, Constantine, 1867, pp. 75-88.
- (٩) Rozet, M. P., **Voyage dans la regence d'Alger**, A . Bertrand, Paris 1833, t. III, P.83.
- (١٠) Pananti, F., **Relation d'un séjour a Alger contenant des observations sur l'état actuel de cette régence**, trad. de. l'anglais par Blanquière, Le Normont, Paris 1820, p. 228.
- (١١) Rozet, **Op. Cit.**, t. II, p. 241.
- (١٢) Martin, C., **Les Israelies algeriens de 1830 à 1902**, Herakles , Paris 1936, p. 36.
- (١٣) شالر ، وليام : المصدر السابق ص (٩٢) .
- (١٤) Mainz, E., « Les Juifs d'Alger sous la dimination turque ». in **Journal Asiatique**, TCCXL, 1952, p. 217.

- Cohen, M., **Le Parler arabe des juifs d'Alger**, Champion, Paris 1912, p. 14. (١٥)
- Clausolles , M. P. , **L'Algérie pittoresque ou Histoire de la régence d'Alger**, Paris 1843, p. 96. (١٦)
- Haedo, **Op. Cit.**, p. 91. (١٧)
- Rozet, **Op. Cit.**, t. II, p. 253. (١٨)
- Leynadier, et Clausel, **Histoire de l'Afrique Française**, Paris 1846, p. 153. (١٩)
- Haddey, H. J.M., **Le Livre d'Or des Israelites algériens**, Alger 1871, p.9. (٢٠)
- Grammont, **Op. Cit.** p. 44. (٢١)
- Emerit, M., « Les Quartiers commerçants d'Alger à l'époque turque » in **Algéria**, Février 1952, p. 12. (٢٢)
- Cite par . Eisenbeth, M ., « Les Juifs en Algérie et en Tunisie à l'époque turque » (1516-1830) . in **Revue Africaine** , 1952, p. 334. (٢٣)
- Raynaq, Gt., **Histoire philosophique et politique des établissements et du commerce des européens dans l'Afrique Septentrionale**, Paris 1826, t. II, p.92. (٢٤)
- Boudia, M., **La Formation sociale algérienne précoloniale**, Paris o.p.u., Alger 1981, p. 180. (٢٥)
- Emerit, M., « Les Liaisons terrestres entre le Soudan et l'Afrique du Nord au 17e siècle et au début du 19 e siècle », in **Travaux de l'Institut de Recherches sahariennes**, No 19, 1954, p. 37. (٢٦)
- Rozet, **Op. Cit.**, t. II, pp. 226-227 . (٢٧)
- Filippini, J. P., « Livourne et l'Afrique du Nord au 18e siècle » , in **Revue d'Histoire Magrébine** , No7-8 (1977) , p. 145. (٢٨)
- Haddey, **Op. Cit.**, p. 42. (٢٩)
- Ibid** , p. 44. (٣٠)
- Julien, CH. A., **Histoire de l'Afrique du Nord** , Payot , Paris 1964 , p. 240 . (٣١)
- أزيد من المعلومات حول شركة بكري وبوشناق راجع : الزبيري ، محمد العربي ، التجارة الخارجية للشرق الجزائري قبل الاحتلال، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر ١٩٧٩، ص(٢٥٥-٢٨٥). (٣٢)

Perrot, A.M., Alger, Esquisse topographique et historique du royaume et de la ville, Paris 1830, p. 26.	(۳۳)
Esquet, Op. Cit. , p.24.	(۳۴)
Plantet, Op. Cit., p. 463, Note I	(۳۵)
Bloch, I., Inscription tumulaire des anciens cimetières israélites d'Alger, A. d' Urlancher, Paris 1888, p. III.	(۳۶)
Idib, p. 96.	(۳۶)
Idib, p. 96.	(۳۸)
Ibid, p. 97.	(۳۹)
Grammont, Op. Cit. p.360.	(۴۰)
Ibid, p. 361.	(۴۱)
Ibid, p. 361.	(۴۲)
Bloch, Op. Cit. p. 102.	(۴۳)